عالم فى الذرة والموسيق
وضعناه فى أكبر المناصب ثم قتلناه

كنت كلما صافحته أحسست أنى ألمس مجموعة من الأسلاك المكهربة، فلا أكاد أمد إليه يدى.. حتى تنتابنى رعشة مبهمة، لعلها رعشة الإجلال له، أو النفور منه!

فقد كان شخصية جليلة، مهيبة، وكان مبعث إجلاله، ومهابته.. تبحره فى علوم لا يدرك قيمتها إلا الأساتذة المتخصصون فى هذه العلوم التى كانت حدثا جديدًا بالنسبة إلى العصر كله، ولغزًا غامضًا بالنسبة إلى البلاد المتخلفة.. وكان بلدنا واحدًا من هذه البلاد عندما لقيت العالم المصرى الذى اقترن اسمه بعدة أبحاث عن الطاقة الذرية، والنظرية النسبية لأينشتاين، وأصدر عدة كتب «عن الهندسة الوصفية» و«الميكانيكا العلمية، والنظرية» و«الهندسة المستوية الفراغية» و«النظرية النسبية الخاصة» و«الذرة والقنابل الذرية» و«العلم» و«الحياة»..

وكان أول من دعا إلى وجوب التعاون العالمى لتوجيه العلماء، ونبه إلى وجود معدن اليورانيوم فى مصر..

إن الرجل قد سبق بيئته العلمية المحلية بكتبه ومحاضراته وأبحاثه ونظرياته وهو يشغل منصبًا جامعيا مرموقًا.. وقد اتسم بالجرأة والصراحة وشجاعة الرأى. وهذه صفات تجذبنا إلى احترامه، وهى فى الوقت نفسه، تدفعنا إلى النفور منه!

فلم يكن من اليسير على مجتمعنا المفتون بالسذاجة فى الأدب والمعرفة، والفن، والسياسة، أن يتجاوب مع عالم يحلق بدراساته وبحوثه فى أعلى الآفاق وعلى مستوى عالمى. فقد حاضر فى منظمات علمية دولية، واحتل اسمه مكانًا كبيرًا بين علماء الرياضة العالميين، وصارت له نظرية خاصة فى النسبية يتعرض لها أساتذة الجامعات فى أوروبا وأمريكا بالمناقشة والجدل وكان يتبادل الرسائل مع أينشتاين.

وهذه العبقرية.. التى تمارس العلم بأستاذية كبيرة وسلوك شخصى مترفع.. كانت إذا اختلطت بالناس بدت كشهاب هبط إلى الأرض ولم يحترق.. كل من رآه يعجب به، ولا يجرؤ على الدنوّ منه.. هكذا كان شعورى عندما تقابلت معه

لأول مرة فى دار المرحوم الأستاذ مكرم عبيد..

قصير القامة، ممتلىء الجسم فى غير ترهل، تتجلى أناقته فى حركاته، وإشاراته، وكلماته، وبذلته، وربطة عنقه، يحسن الحديث، ويحسن الإصغاء، يخيل لك أنه يهمس إذا تكلم، ويهمس إذا أصغى! فلا يرتفع صوته إلا بقدر ما يصل إلى جاره ولا يميل بجسمه لكى يسمع. ولكن يرهف أذنيه برشاقة ووقار.. وكنت أظن أن هذا العالم الغارق إلى أذنيه فى المراجع الجافة لا يتذوق الأدب والفن، ولا يتعرض للأوضاع السياسية.. وأدهشنى أنه وجه إلى مكرم عبيد ملاحظات هاجم بها الأحزاب كلها، وكان مكرم عبيد رئيسًا لحزب الكتلة بعدما اختلف مع مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد، واضطره هذا الخلاف إلى أن يتعاون مع خصومه بالأمس، من أحزاب الأقليات.

قال العالم الجليل لمكرم عبيد: إنه عمل عظيم أن تثور على فساد الحكم، وأن تمضى فى ثورتك إلى أن تدخل السجن وتضحى بمكانتك فى الحزب الذى ساهمت فى بنائه، وتفضل أصدقاءك الذين شاركوك حياتك الحزبية. ولكن ماهو

الهدف من هذا الموقف؟ هل الهدف أن تمنع حزبًا من الفساد لتفسح المجال لأحزاب أخرى؟ وهل تعتقد أن هذه الأحزاب تستطيع أن تقاوم رغبة من يقف وراءها ليهدم بها حزب الأكثرية ويتولى هو مقاليد الأمور.. فيطغى كما يشاء وينهب كما يشاء!!

وقال مكرم: دعونا من الكلام فى السياسة الآن، فقد اجتمعت بكم الليلة للاحتفال بعيد ميلادى، وأريد أن أنسى السياسة ليلة واحدة كل عام!

وكان من بين المدعوين محام شاب.. وأراد أن يحرج العالم الجليل فسأله: من الإنسان الذى يقف وراء الأحزاب ليجعل منها مخلب قط.. ينهش حزب الأكثرية ثم يطغى هو وينهب كما يشاء؟

وقال العالم الجليل بكل هدوء: إنك تعرفه، لست أخاف من ذكر اسمه، ولكنى لا أريد أن أحرج الرجل الذى يحتفل بعيد ميلاده!

وفهم الجميع أنه يعنى الملك! وارتسم الذهول على وجوه الموجودين جميعًا، فقد كان معروفًا أن القصر وقف إلى جانب

العالم الكبير أكثر من مرة، وساندته ضد حكومة الوفد وحكومات الأحزاب الأخرى. وقد نال رتبة الباشوية. ولم ينكر العالم هذه الحقائق ولكنه حللها بطريقته العلمية. يرى أن القصر لم يناصره إلا ليكيد للوزارات القائمة فى الحكم، وبذلك يبدو أمام الشعب فى صورة نصير العلم والعلماء!

ولم تمض هذه الليلة من عام ١٩٤٨ حتى أصبح أستاذنا العالم المحلق فى آفاق لا نعرفها، قريبًا من نفسى، فقد انطوى حديث السياسة وأخذنا نستمع للفنان محمد عبد الوهاب وهو يؤدى إحدى أغنياته بالعود.. وانجهت بكل انتباهى واهتمامى إلى هذا الوقور.. لأعرف هل يستمتع بالغناء مثلنا؟..

كان رأسه أشبه بكرة من زئبق يختلج ويتوهج بحرارة، وإشعاع، كان كل ما فيه لامعًا.. خاتمه.. دبوس ربطة العنق.. زرًا كمى القميص.. نظارته.. ذكاؤه الحاد!.

وكان يتابع النغمات بنقرات أصابعه على المقعد، وبضربات خفيفة بأطراف قدميه فوق السجادة!..

وحسبت أن حركاته لاعلاقة لها باللحن، ولما انتهى عبدالوهاب من الغناء، دنوت من العالم الجهير المهيب الأستاذ

الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة وسألته عن رأيه فى الأغنية التى سمعها ؟

فقال : إن الأغانى المصرية تمشى فى طريق التطور.

وعدت أسأله : هل تهوى الموسيقى !

فقال : أهواها وأدرسها !

ـ هل عندنا ألحان عالمية ؟

قال : عندنا صوت عالمى.. هو صوت أم كلثوم.

ـ ولكنك عالم متخصص فى أشياء لا تمت إلى الموسيقى بصلة.

قال : فى أعماق كل عالم.. فنان. هذا إذا صح أنى عالم !

وأخذت أتعقب تاريخ حياة هذه العبقرية الفذة، ووجدتنى أعيش فى جو ساحر يثير العجب والدهشة.

فالدكتور على مشرفة فرض الحديث عنه فى تلك الأيام من عام ١٩٤٨.. فقد أقام فى مصر أول معرض علمى للطاقة الذرية، ولقى هذا المعرض اهتمامًا من الهيئات العلمية الدولية.

وكان يشغل منصب وكيل جامعة القاهرة، ولم يكن للجامعة مدير، فكان هو مدير الجامعة بالنيابة، ثم دب الخلاف بينه وبين الوزارة فأقصته عن وكالة الجامعة، وظل محتفظًا بمنصبه عميدًا لكلية العلوم.

لم يكن الدكتور مشرفة يعبأ بأبهة المنصب، ولكنه شعر بمرارة فى إقصائه عن إدارة الجامعة، وعانى شعوره المر فى صمت وكبرياء.

وفى سنة ١٩٥٠ وقع حادث خطير. لكن قبل أن نصل إلى هذه السنة.. يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء أكثر من إحدى وخمسين سنة.. لنمشى مع حياة مشرفة خطوة خطوة..

فى يوم ١١ يوليو من عام ١٨٩٨ تمت ولادة على مصطفى مشرفة، وفى عام ١٩١٤ حصل على البكالوريا «علمى» من المدرسة السعيدية وكان أول الناجحين فى جميع المدارس. وفى عام ١٩١٧ نال إجازة المعلمين العليا، وسافر فى بعثة إلى إنجلترا، حيث التحق بجامعة نوتنجهام، وتخرج فيها عام ١٩٢٠ بعد ما حصل على بكالوريوس العلوم، ثم التحق بالكلية الملكية بلندن فحصل على دكتوراه الفلسفة فى العلوم عام

١٩٢٣، وفى عام ١٩٢٤ نال الدكتوراه فى العلوم.. فكان أصغر عالم حصل على هذه الدكتوراه فى العالم..

اشتغل بالتدريس فى مدرسة المعلمين العليا، وكان أول أستاذ مصرى للرياضة فى كلية العلوم، وظل فى منصبه هذا عشر سنوات. وفى عام ١٩٣٦ أصبح أول عميد مصرى لكلية العلوم. وفى عام ١٩٤٦ عين وكيلا لجامعة القاهرة ثم أقصته الحكومة عن هذا المنصب سنة ١٩٤٨ وظل عميدًا لكلية العلوم.

وللدكتور على مصطفى مشرفة خمسة وعشرون بحثًا فى نظرية « الكم » ونظرية النسبية لأينشتاين، والطاقة الذرية.

وقد ألف وحده ومع آخرين ثلاثة عشر كتابًا علميًا، وهو أول عالم مصرى دعته أمريكا رسميًا إلى إلقاء محاضرات عن الذرة فى جامعة برنستون. وأول عالم مصرى يشترك فى الموسوعة العالمية للشخصيات العلمية طبعة نيويورك وطبعة لندن، وكان عالمًا فى الموسيقى.. فهو أول من قام بدراسة مقارنة لاستخدام « الأوكتاف » والمقام بين السلم الموسيقى الغربى، والسلم الموسيقى الشرقى.

وكان رئيسًا لأول جمعية مصرية لهواة الموسيقى والأغانى العالمية، وعضوًا فى المجلس الأعلى لشئون الموسيقى، واللجنة المصرية لتخليد ذكرى شوبان..

وفى ١٦ يناير من عام ١٩٥٠ وقع الحادث الجلل، احترق الشهاب المشحون علمًا وذكاء وعبقرية. مات على مصطفى مشرفة وفى رأسه كثير من العلم، وفى نفسه كثير من الألم!!

فقد حزت فى نفسه محاولة إذلاله بإقصائه عن منصب وكيل الجامعة، ومنعته كبرياؤه من أن يشكو.. وكما عاش حياته العلمية فى هدوء.. لفظ آخر أنفاس حياته فى هدوء!..